الفصل التاسع عشر

متى أبكي

كانت حالة عزيز كامل تسوء يوما بعد يوم، وقد زاد ضغط دمه وتـصلّب شرايينه.. وكان ينام الساعات الطويلة، فاذا ما أفاق وجاءتـه حيـاة أو العمـة عائشة بالعصير أوالدواء وسألته عن صحته أجاب بإعياء "انني أخشى أن أموت ولا أرى أحمد" وكانت مها تسمع بهذا فلا تحدث أحمد به خوف أن يحمله حبه البنوي فيذهب لرؤية والده متحديا كل الأخطار..

وجاءه يوما اثنان من رجال المخابرات يطلبانه للتحقيق، فانبرت لهما حياة وعنفتهما عند الباب..

-لا أسمح لأحد بالدخول.. ان الرجل في خطر وأية هزة تودي بحياته..

-يجب أن نراه ولو كان على فراش الموت..

واقتحما البيت فأمسكت حياة بالتلفون تستدعي عبد الوهاب، وحدثته بحالـة أبيه الخطيرة وبما كان من رجال الأمن..

نظر عزيز كامل الى الرجلين الغريبين وهما يسألانه عـن ابنـه أحمـد ويتهددانه.. وانتفض من فراشه وصاح بهما وجسمه ينتفض:

-ماذا بوسعكم أن تفعلوا لرجل أيامه معدودات؟ لوكان أحمد عصفورا في قبضة يدي، لما بسطتها ولو رويتموها بدماء قلبي.. كانت تلك هي الكلمات التي سمعتها مها وهي تلج الغرفة لتزور عمها! فأمسكت بيده تقبلها وتقول:

-ياعمي اعذرني! انني لا أستطيع أن أزورك كثيرا.. الصغير مريض ولا يرضع مني، كأنما جفّ مني الحليب.. انني أرضعه كل قلقي على أحمد.. أيـن هو؟ أين اختفى؟ البارحة تلفن لي رجل مجهول قال لي بأنه شاهده في بيـروت ولكنني فهمت من حديثه أنه كاذب.. لعله من رجال المخابرات.. وأكثـر مـا

أخشاه أن يكون معتقلا.. أممكن أن يكون في بيروت ولا يجد طريقة يطمئنني بها؟ وأنت ياعمي في حالك هذه تحتمل همومنا؟ ألا نجد شيئا مفرحا نحدثك به؟

-يابنتي.. عرفت أياما كثيرة صعبة.. ولكن كل شقاء يهون أمام العار.. لو قيل لي أن أحمد مات في معركة لما ذرفت دمعا عليه، ولكن لوقيل أنه اقترف أمرا مشينا لجلست أبكيه حتى تعمى عيناي!

-لا أبكاك الله ياعمي.. لتبك عيون كل من يسيئون اليك ولا يعرفون قدرك!..

كانت مها تتكلم بسذاجة من لا يدري أن الرجلين اللذين جلسا للتحقيق معه هما من رجال الأمن، وأن كل كلمة فاهت بها ستسجل في تقرير عنها..

لم يلبث أن دخل عبد الوهاب، فتلون وجه الوالد بزرقة ولم يرد عليه السلام.. كان حردا موغر الصدر عليه، ولما همّ عبد الوهاب بتقبيل يده سحبها منه وقال بصوت متهدج:

-أنظر ماذا فعلتم بي! قصصتم جناحي، لا أحمد ولا عادل قربي.. انهم لا يخجلون أن يهددوني ويطلبوني للتحقيق وأنت في الوزارة، رجل مسن مثلي يذلّ في آخر عمره وهو يفارق الدنيا!

وأخذ يرتجف وهو يكاتم دمعه، والتفت الى مها وقال بلهجة آمرة:

-أعطني علبة سجائري من الدرج..

-لست أجدها ياعمي!

-اسألي حياة أين خبأتها.. انني أغضب عليها في الدنيا والآخرة ان لم ترجعها.. وخرجت مها، وشاهدت المخبران يتركان المنزل منصرفين.. وخرج عبد الوهاب في أثرهما وتناول الهاتف من الردهة وطلب طبيبا من معارفه ليفحص والده ووضع السماعة وقال لمها وهي ترتقي الدرج:

-هل تسمحين بسؤال؟

-تفضل!

-أين أحمد؟

-لست أدري..

-ان كنت تدرين فاخبريه أن الحكم سيغير اتجاهه ويتعاون مع التقدميين..

-هل تصدق هذا القول؟ هل تخدع نفسك؟ أتحسب أن دوركم لن يأتي؟

-أخبريه أنت عن هذا الإتجاه الجديد.. الحكم لا يـستطيع التعـاون مـع أشباح..

-قلت لك لا أدري أين هو، ولو عرفت لما تسرعت في إخباره حتى أرى السجون تخلي نزلاءها، والمنفيين يعودون الى ديارهم!..

عادت مها الى منزلها، وبقي عبد الوهاب قرب أبيه بعد أن أخبره الطبيب بأن حالته خطرة، فصدره متليف وهو لايستطيع التنفس الاّ من أنبوبة أكسجين..

وضعت أنبوبة الأكسجين قرب سرير الوالد كلما شعر بالإختنـاق، وكـان عزيز كامل يصحو أحيانا ويتهدج صوته قائلا:

-أحمد! حلمت بوصوله لأراه! انني أموت وبالي مشغول عليه يـا عبـد الوهاب.. حطمتما قلبي بخصامكما.. أنتما أخوان.. لم آتي بكما الى الدنيا لتكونا عدوين.. أحمد إنسان شريف.. انه يتعذب .. يشقى ويجوع وتشقى عائلته معه.. لا تخذله يا عبد الوهاب وتجور مع الجائرين.. كم نعيش في هذه الدنيا! حطـام كل متاع الدنيا.. لاتجعل المنصب يستعبدك.. ان حب الأهل كنـز لا يفنـى.. لست أوصيك الاّ ان تكون بجانب الحق..

وكان كلما استنفذ عزيز كامل قوته، وأحس بالإختناق أسعفه عبد الوهـاب بشحنة أكسجين.. فعاد الى الحديث:

-وعادل، ما ذنب عادل؟ قالت لي حياة أنه مسافر ولكني شاهدت المرضى محتشدين عند باب داره فتحاملت الى الشرفة وسألت أحدهم فأخبرني الحقيقة..

هؤلاء المرضى الذين يطبب نصفهم مجانا، والنصف الآخر بأجر زهيد، كانوا سيقومون بمظاهرة أمام وزارة الداخلية من أجله.. رجل قلبه لله، لم يعامل هذه المعاملة المجرمة؟ ألا ترى يا عبد الوهاب أن بيوتنا أصبحت بـدون رجـال.. لست أرى وأنا أفارق الدنيا الاّ النساء الدامعات!

كان عزيز مستلقيا على الديوان يدرس عن ظهر قلب قطعة شعرية عـن بلبل يرددها مرة بعد أخرى، وكان الحفظ يجهده، فيبدأ البيت الأول وهو يصفق بيديه ثم يتوقف وقد نسي ما يتبعه فيلوح بساقيه في الهواء كأنه يسوق دراجـة وهو يردد المقطع الأخير ثم يعقدهما وقد حشر في مأزق، وعندما يذكر الكلمة المنسية تنفرج أساريره وتضحك نغيته وترتخي أطرافه ويتقلّب يمنة ويـسرة، ويسيل الشعر من فمه متدفقا قويا حتى يأتي الى البيتين الأخيرين فيقبض يديـه ويأخذ بضرب الديوان كأنما هو مصارع يوجه الى خصمه الضربات الأخيـرة قبل أن يلقيه أرضا وعلى وجهه فرحة الإنتصار.. وتتسارع نبرة صوته وهـو يردد البيت الأخير:

ففرعني ونأى من غير أدنى سبب

وقال لي حريتي لا تشترى بالذهب

كانت مها تنسج وتتغامز ووالده عليه ويبتسمان وهو في شغل عنهما.. ولم يكد يتمكّن من درسه حتى أسرع الى مكتبته الصغيرة وأحضر لأمه قصة لـم يسمعها بعد، اشترتها في طريقها الى البيت بعد زيارة عمها.. كانت عن الكلبة لايكا، وأخذت أمه تقرأها عليه وهو بادي الفرح والإنفعال في بادئ القصة، ولم يكد يسمع أن لايكا ماتت حتى أجهش بالبكاء.. وقالت أمه وهي تقبله وتهدئ من روعه "ولكن لايكا بطلة.. انها رائدة الفضاء الأولي، وستبقى في أذهـان كـل أطفال العالم الذين سمعوا بقصتها.."

وطلب أحمد الى عزيز أن يذهب ويغسل وجهه وقال:

-لا أحب أن تقصي على عزيز نهايات محزنة للأطفال.. تـشعره بعـدم الأمان.. لابأس أن نجمل له واقع الحياة، فيبقى قلبه طافحـا بالأمـل والفـرح والحياة.. لا بأس ان نقول له أن لايكا قد احتفل بها وزينـت بأكاليـل الـورد وتوجت ملكة للكلاب! يجب أن تكون طفولة الصغار كاملة.. كنت دائما وأنـا مختف في بيت صديقي المحامي أسمع صوته يبكي ويناديني بابا.. وكان قلبـي يتمزق حزنا.. لا تدعي يا حبيبتي له سببا للبكاء.. ووضع عزيز فـي حجـره وأخذ يقبله ويمازحه حتى أشرق وجهه وبانت نواجذه ثم أغفى علـى صـدره مطمئنا سعيدا.. فحمله الى فراشه..

كانت مها تكاتم شعور كآبة رهيب وهي تذكر عمهـا وحالتـه الخطـرة، وترددها في إخبار أحمد عن حالته.. كيف يكون وقع الخبر عليه لو حدث لوالده مكروه؟ وتضرعت في سرها أن يجتاز عمها مرحلة الخطر، فلا يتعرض أحمد لكشف أمره! ولكنها كانت تشعر ان عين الحكم لن تغفل طويلا عن منزلهـا.. وذكرت الخراب الذي أصاب بيت صديقتها، فدمعت عيناها وسألها أحمد عمـا بها فقالت:

-كنت أفكر في مليحة.. عجيب أمرها.. لماذا تقول مرة أنه انتحر، ومرة ثانية أنهم قتلوه؟

-لا شك أنهم يهددونها.. انني أعرف إحسان.. انه لا يقدم على الإنتحار.. يحب الحياة بكل جوارحه.. أتذكرين ضحكه ونكاته، وغيظه الذي يثير الضحك حين يكتشف مقلبنا معه؟

-أذكر.. كان رقيقا خجولا كأنه فتاة! ان مصيره لاشى آخر غشاوة عـن عيني بأنه يمكن لأية دكتاتورية أن تكون شريفة مخلصة.. كيف سمحت لهـذه الأوهام أن تعشش في عقلي؟

-لا يجب أن يؤخذ الأمر من وجهة نظر أخلاقية، الإنسان ليس خيـرا ولا شريرا ولكنه يتبع قوى معينة هي في مصلحته..

-ما هي مصلحة هؤلاء الناس الذين لا يزالون يُخدعون؟ ما هي مـصلحة الذين يسيرون وبطونهم خاوية في أن يتبعوه؟

-ان هذا الحكم يمثل البرجوازية الصغيرة، الذي اسـتثار كـل أحقادهـا وحسدها وغيرتها وطمعها.. انها تتبعه لأنها تشعر بقوتها، وتفغر فاها للسلطة.. تريد تكافؤ الفرص، وتدرك تفوقها في الصراع.. الحكم رشوة لها على حساب الطبقة العاملة المنتجة!..

-أمعقول ما يقوله أخوك أن الحكم يريد التعاون مع التقدميين؟

-قد يتعاون مع التقدميين كأفراد لا كجبهات، ولكن هذا لن يغير في الأمر شيئا.. الأفراد حين ينفصلون عن جماعتهم لا يمثلون الاّ أنفسهم.. يتخذ الحكـم منهم أقنعة ليخفي وجهه الكالح.. والاّ كيف يرفع شعار انتهـاء المعركـة مـع الإستعمار منذ تمت الوحدة؟!

-ماذا تفعل؟

-أنا لن أكف عن النضال.. ولكنني لا أستطيع الكثير وحدي؟ نحـن أمـام قوى، الأفراد أمامها هزيلون.. نحن مبعثرون.. كل واحد في مكـان.. قوتـان قادرتان على إنقاذ البلاد: الجيش أو الجبهة الوطنية وكلاهما غائبان.. هذا الحكم مهلهل، ولكنه يتماسك بسبب تفرق الكلمة.. ان الإرهاب دليـل علـى افـلاس الحكم وانعزاله ويأسه..

-ان ما يحيرني أن يستطيع فرد قد يكون أحمق، وقد يكون جـاهلا، وقـد يكون مرتبطا بقوى خارجية، أن تصبح له قوة تكون قدرا في حياة النـاس دون أن يملكوا دفعها!..

-الصدفة تلعب دورها في استلام إنسان ما مركز قوة، تـستقطب حولهـا طبقة اجتماعية منتفعة.. ان قوته تنبع من كونه يمثلها، وليس لأنـه عبقـري.. والفرد العادي يصطدم بقوته المتشابكة المصالح فيشعر بـالعجز أمامهـا.. ان المنتفعين هم أول من يجعل للحكم الفردي أنيابا وأظافر.. هكذا يجب أن تفهـم الأمور..

* * *

وفاة الوالـــد

أفاقت مها والنهار قد تبلج على رنين الهاتف.. فهبت من فراشـها وقلبهـا يدقّ بعنف.. وأمسكت بالسماعة فكان ما خشيته.. كانت حياة تبكـي وتخبرهـا بوفاة عمها!..

-عمي! متى، متى؟ تركته على حال حسنة.. انني قادمة.. لا حول ولا قوة الاّ بالله!..

كان أحمد قد انتفض من فراشه ووقف قربها يصغي وصدره يعلو ويهبط.. ولم تكد تضع السماعة حتى ألقت بيديها على عنقه وهي تجهش بالبكاء.. ووقف أحمد جاحظ العينين، خافق الصدر وقد أخذته المفاجأة..

-أيكون والدي مريضا ولا تخبريني؟ هل كان في خطر وتكتمـين الأمـر عني؟

-أحمد، خشيت أن تغلبك العاطفة و...

-هل أنا طفل كي تمثلي الأدوار أمامي؟

-أحمد افهمني! أردت سلامتك.. هل تحقد علي؟

-لو اطمأن علي ورآني لعاش عشر سنوات أخرى.. لمـاذا أنـت غيـر صريحة معي؟

-عندما تهدأ تحكم أفضل على تصرفي..

-والان سأراه جثة هامدة! ثم أردف:

-ابق أنت في البيت سأذهب وحدي!

وأخذ في ارتداء ثيابه ويداه ترتجفان وهو يزرر قميصه وجلست مها على طرف السرير تتوسل اليه:

-لاتفعل ياأحمد! لا تفعل، ستشقيني وطفليك!.. قبل البارحـة فقـط جـاء رجلان من الأمن يسألان عنك فانفعل والدك وانتكست صحته.. أنت تعلم بمـا يحدث.. لو أن للحكم شرعية، لو أن السجين يجد محاكمة عادلة لهان الأمر.. لا تعرض حياتك للخطر، أتوسل اليك.. لو كان حيا لم يكـن ليرتـاح أن يـراك تعرض نفسك للتهلكة!..

كان مستمرا في ارتداء ملابسه دون أن يعيرها التفاتا، وأخذ يعقد شـريط حذائه..

-لن يستطيع وغد أن يحرمني من أن أودع والدي الـوداع الأخيـر.. ان أمري سيكتشف عاجلا أو آجلا، وهذه أنسب فترة لظهوري.. ولـن يـستطيعوا القبض علي في مثل هذه الظروف..

-هل لديك صورة واضحة عما ستفعله بعد ظهورك؟

-لكل حادث حديث.. على كل حال ان نضال السقايف لا يلائـم طبعـي أبدا.. موت في الحياة!

كانت مها تعلم عبث توسلها لو عول على أمر.. وكانت تشعر بتململه في محبسه وضيقه به.. لقد فقد صبره، وأصبح يثور لأتفه الأسباب..

-ألا تنتظرني قليلا لأذهب معك؟

-ابقي فعزيز وهمام بحاجة اليك!

-آخذهما معي وأترك عزيز في منزل حياة وأترك همام معي..

بكى عزيز عندما سمع بوفاة جده، وزاد بكاؤه عندما رأى والـده مرتـديا ملابسه يريد الخروج:

-لا أريد أن يذهب بابا من البيت.. لا أريد..

-إطمئن ياحبيبي.. لن يناله أحد بأذى..

-والفاشست؟

-يحميه الله! وفي السيارة أصرعزيز أن يجلس في حجر والده بالرغم من اتساع المقعد له..

نزلت مها لتودع عزيز في المنزل المجاور لبيت عمها فتشبث عزيز بأبيه لا يريد أن يتركه فنزل والده معه وصرف السائق وقال مهدئا روع عزيز:

-أكنت تريد لعلاء الدين أن يبقى في المغارة ولا يخرج ليحارب الـساحر الشرير؟

-ان عند علاء الدين مصباح سحري..

-وأنا عندي مصباح سحري يا حبيبي.. الحق الذي أدافع عنه.. انه دائمـا يكون له النصر..

كانت مها ترن جرس الباب فخرجت عائدة وفوجئت برؤية خالها وبكـت على كتفه وهي تقول:

-ان والدي معتقل..

-لا تخافي عليه.. انه يفتح عيادة في السجن.. لـيس الأمـر سـيئا كمـا تتصورين.. خذي عزيز وقصي عليه قصصا مفرحة يا خالي..

كانت سيارة عبد الوهاب عند الباب حين دخل أحمد منزل والده، واستقبلته حياة محمرة العينين بمزيج من الدهشة والفرح والقلق والحزن. ولـم تلبـث أن خرجت العمة عائشة وقد لفت رأسها بمنديل أبيض وأخذت تضم أحمد وتجهش بالبكاء:

-ليته رآك.. مات بحسرته عليك.. ولم يفتر لسانه عن ذكرك حتى آخـر لحظة!

وأشاحت مها بوجهها وهي تعض شفتها فهمست لها حياة:

-عبد الوهاب هنا.. أليس من بأس في أن يراه؟

-يريد أن يظهر..

دخل أحمد غرفة والده ورفع الغطاء عن الوجه البارد المغضن وقبله وقبل يديه وبكى وأحس بيد تلقى على كتفه:

-هدئ من روعك يا أحمد!

فالتفت ونسي الأخوان المتخاصمان نزاعهما وأكب كل واحد على كتـف الآخر يبكي فوق الجثة الهامدة التي طالما تضرع صاحبها أن يسود الوئام قلب الأخوين فلم يستجب له..

وانتبه عبد الوهاب الى شعر أحمد الرديئ القص وذقنه التي طالت، فقـال بعد أن هدأ أحمد..

-ان غرباء سيدخلون المنزل اليوم فان شئت الإختفاء فتعال الى بيتي..

-لست أنوي أن أختفي..

- تعال معي على كل حال لتحلق شعرك وذقنك..

-سأبعث في طلب حلاقي القديم الى هنا..

-أما أنا فسألاحق معاملة الدفن..

كان ظهور أحمد المفاجئ في تشييع جنازة والده حديث البلد.. تقاطر الناس الى التعزية في شبه مظاهرة متحدية للحكم.. وكان المقدم حميد بين المعـزين ومد يده مصافحا أحمد والتقت عيناهما في نظرة طويلة.. كانت نزالا.. مبارزة عيون.. ولم يستطع المقدم حميد الاّ أن يغضي في النهاية.. كان في حرج كبير ولقد نصح المصريين أن يتغاضوا عنه في الوقت الحاضر.. وحدثهم عن وفود

المعزين، أفواجا وراء أفواج حتى لا يستريح المعزي على مقعده أكثر من دقيقة فيشغر مكانه لوافد جديد وأردف:

-أنا واثق أن اعتقاله سيثير نفوس الناس الى درجة أخشى معها أن تفلـت الأمور من أيدينا ونحن على هذه الحال: فئات كبيرة غاضبة ووزراء كثيـرون يستقيلون..

-ألا نستطيع أن نرضيه بطريقة ما؟..

-أشك في أن يتعاون معنا.. ولكنني سأستشف رغبته عن طريق أخيه..

* * *